الأخلاق الماديّة ومطرقة «نيتشه» الجينيالوجيّة

ديانا عبد الجوّاد حدّارة*

ملخّص البحث

يسعى هذا البحث إلى قراءة متأنِّية للهدم الجينيالوجيّ للأخلاق الذي مارسه الفيلسوف الألمانيّ «فريدريك نيتشه» (Friedrich Nietzsche)، الأمر الذي يُحفّزنا على البحث في أصلِ تحوّلاتنا الأخلاقيّة وقِيَمها والمبادئ التي ترسم الحالة الرّاهنة للأخلاق من خلاله، والبحث في فلسفته الأخلاقيّة، لتكون مقدّمة تحمل مفاتيح إشكاليّتنا الأخلاقيّة الرّاهنة وقِيَمها. وقد انطلقنا من منظور يهدف إلى إقامة مقاربة بين قِيمنا الأخلاقيّة الرّاهنة والأخلاق التي حمل «نيتشه» ـ قبل حوالي ثلاثة قرون ـ معوَله الجينيالوجيّ لتحطيم وجهَيها الدّينيّ والفلسفيّ، لنرافقه في رحلته الأخلاقيّة ونُعيد قراءة تسويغه لهذا الهدم والكيفيّة التي يوضّح فيها نسقه التّفكيكيّ لتاريخ الأخلاق والحضارة والثّقافة، ومحدّدات القِيَم الأخلاقيّة وعلاقتها بسلطة اللّغة ومن يملكها.

وفي خاتمة البحث خلصنا إلى كيفيّة تحوّل الحداثة إلى تضخّم مفرط للنّزعتين

* أستاذ مساعد في الجامعة اللّبنانيّة، كلّيّة الآداب، قسم الفلسفة - لبنان.
Email.hiunique@hotmail.com

المادِّيّة والاستهلاكيّة، فتشيَّأ الإنسان، وجرى تسليعه بحكم سيادة منطق الرّأسماليّة المتوحّشة التي أحالت البشر إلى مجرَّد آلات مُسخَّرة لتحقيق فائض الإنتاج اللّازم لاستمرار المنظومة الاقتصاديّة، التي تُسيطر عليها فئة قليلة مِنَ البشر وتفرض قِيَمها الأخلاقيّة، فهي تملك سلطة الكلمة والمعنى، وتاليًا أنساقها القِيَميّة ـ بالمنظور النّيتشويّ ـ التي عزّزت الفردانيّة والرّغباتيّة. وعليه، حلّ الأنا «أُريد» وقِيَمها الأخلاقيّة المادِّيّة بدل الأنا «أُفكّر» وإدراكاتها المعقولة البَعديّة.

تمهيد

في عصر الفضاء المفتوح، أصبح التّواصل الكونيّ بين البشر حتميًّا، متخطّيًا حواجز الزّمان والمكان والتّاريخ والجغرافيا، مُحْدِثًا حالة من النَّمْذَجَة الأخلاقيّة الكونيّة للمجتمعات على اختلاف مشاربها وإثنيّاتها وأديانها وأعراقها؛ ليصبح الفعل الأخلاقي المسؤول عن الانقلاب الخطير في القِيَم الأخلاقيّة صنيعة مجموعة ممَّن يملكون مفاتيح التّحكّم في الفضاء المفتوح. إنَّهم سادة هذا العصر، بالمنظور النّيتشويّ، الذين يسيطرون على المجتمع الكونيّ، ويفرضون مبادئ وقِيَمًا أخلاقيّة تُنتجها التّقنيّة التي يمتلكونها، التي تختصر الإنسان في مجموعة من الرّغبات، وتوهمه أنّ سعادته تتحقّق من خلال تلبية هذه الرّغبات اللّامتناهيّة. فمالكو التّكنولوجيا قد فكّروا في كلِّ الاحتمالات، وآلاتهم وجدت حلًّا مناسبًا لكلّ مشكلة، ليتحوَّل المجتمع الإنسانيّ إلى مجتمع تقنيّ محلّل لكلّ شيء، بما أنَّ كلّ محظور يمكن أن يتحوّل إلى إنتاج، وكلّ إنتاج إنَّما وُجد ليُستهلك، والاستهلاك كيفيّ؛ أي حسب الرّغبة. ناهيك عن أنَّ تحوّل العالم إلى قرية كونيّة واحدة جعل من الأخلاق ظاهرة عُرضة للتّبدّل والتّغيّر بشكل سريع زمنيًّا، فمقولة «في **الماضي البعيد** كان من المُشين فعل كيت وكيت» مثلًا، تحوَّلت إلى «**بالأمس القريب**...».

هذه التحوّلات في القِيَم والمبادئ الأخلاقيّة التي ترسم الحالة الرّاهنة للأخلاق تُحفّزنا في البحث فيها، من خلال فلسفة نيتشه الأخلاقيّة، لتكون مقدّمة تحمل مفاتيح إشكاليّتنا الأخلاقيّة وقِيَمها.

قد يعترض المرء بحقّ على أنَّه بين نهاية القرن التّاسع عشر عندما انكشف فكر «نيتشه»، والعقد الثّاني من القرن الحادي والعشرين حيث يتعيّن علينا العمل، ثمّة الكثير من الاختلافات بجميع أشكالها، بحيث يكاد المرء لا يبالغ في الادِّعاء

بأنَّنا و«نيتشه» لم نعد نتحدَّث عن الأخلاق نفسها. وهذا اعتراض مشروع.

غير أنّ الضّجَّة التي يولّدها خطاب «نيتشه» الأخلاقيّ في القارئ يمكن أن تكون بمثابة إيقاظ وتنبيه وتحذير. إنَّه خطاب يوقظ التّفكير الأخلاقيّ من سباته، ويجبرنا ـ على وجه التّحديد ـ على طرح المشكلة الأخلاقيّة فيما كثير من الأصوات في داخلنا تقنعنا برفضه.

ولكن هل يمكننا أن نمنح فكر «نيتشه» الأخلاقيّ أكثر بكثير من هذه المهمّة الاستفزازيّة؟ وهل يمكن الادِّعاء أنَّ أخلاقنا المعاصرة، بمبادئها ومضامينها القِيَميّة، تتماهى مع منظور «نيتشه» الأخلاقيّ؟

قد تبدو محاولة التّفكير في الأخلاق راهنًا والسّعي وراء أصلها والبحث عن مصدر مفاهيمنا الأخلاقيّة، والسّياق الذي تشكّلت فيه وهُويّة من صاغها والمجتمع الذي طوّرها، والتّجرّؤ في العودة إلى «نيتشه» أساسًا لهذا البحث، مناظير متناقضة. ذلك أنَّنا إمَّا أن نُفكّر في الأخلاق انطلاقًا من منظورنا الخاصّ، وما يحتويه لا وعينا من محمولات قيميّة دينيّة واجتماعيّة وتاريخيّة... مع الإرادة المعقولة في فهم المعطيات الخاصّة بمشكلاتنا التي ـ في الغالب ـ لم يسبق لها مثيل، أو أن نكون شغوفين بتاريخ الفلسفة، فندرس فكر الفيلسوف لنفسه، حتّى لو كان ذلك يعني التّفكير لاحقًا في سبب وكيفيّة استمراره في إثارتنا للتّفكير والعمل.

في المقابل، إذا ما أردنا توصيفًا للأخلاق، نجد أنَّها بعامّة جملة من القواعد يجد أفراد المجتمع الواحد أنفسهم ملزمين بالاحتكام إليها، والخضوع لها كونها تبسط سلطانها على العلاقات المتبادلة بينهم. لذلك، تبدو الأخلاق نتيجة كلّ العادات والتّقاليد التي يرتضيها المجتمع قواعد سلوك عامّة تحكم العلاقات بين أفراده، فضلًا عن أنَّ قواعد السّلوك هذه اقتضتها ضرورة الاجتماع البشريّ. ومثل هذه الأخلاق قد تبدو منافية للطّابع الشّخصيّ للإنسان، ومنكرة لحرّيّة الفرد الذي قد يتملّكه شعور بالانصياع لإرادة الآخرين، وربّما الخوف من سلطة عُليا ذات ذكاء خارق تتمتّع بقوّة غير واضحة وغير مفهومة تُصدر أوامرها، ولكن عليه الخضوع لها والالتزام بصرامة بأحكامها. قد يسأل سائل: ما العلاقة بين تحوّلاتنا القيميّة الأخلاقيّة، وتلك التي تكلّم فيها «نيتشه» الذي غالبًا ما توصف فلسفته بالتّعقيد وبصعوبة الفهم؟!

ثورة «نيتشه» ضِدَّ التّراث الأخلاقيّ

يتَمَثّل جوهر فلسفة «نيتشه» بكونها فلسفة عميقة، وكما يقول هو نفسه (عن فلسفته) دائمًا (أنها) لم تكن مهتمّة بالقارئ المعاصر، ولكن كانت منشغلة وتُخاطب أساسًا قارئًا مستقبليًّا ينتمي إلى قرون العصور التّالية لعصره، حيث كان «نيتشه» الذي عاش بين القرنين السّابع عشر والثّامن عشر، يقول: «إلى أين يجب أن نتَّجه نحن بآمالنا؟ إلى فلاسفة جدد،... يُعيدون تقييم القِيَم الخالدة ويقلبونها، إلى روّاد وأُناس للمستقبل يعقدون في الحاضر العقدة القاهرة التي تجبر إرادة الآلاف من السّنين على السّير في مسارات جديدة»[1].

لقد مثّلت الأخلاق إشكاليّة رئيسة بالنّسبة إلى الفيلسوف الألمانيّ، وهي حاضرة في كلّ مؤلفاته؛ ليحتلَّ بحثه التّاريخيّ في تطوّر النّظم والأحكام الأخلاقيّة مكانة مركزيّة في فلسفته، حاملاً مِطرقة الهدم الجينيولوجيّ للأصنام المجسَّدة بالمُثل العظيمة التي ترتديها الأديان والميتافيزيقا الكلاسيكيّة، والتي أيضًا حملت لواءها الأيديولوجيّات التّقدُّميّة، وباسم العقل والأخلاق والتّاريخ عمدت إلى إخضاع الحياة لما يُسمَّى بقِيَم عُليا مثاليّة، مثل الشّيوعيّة والدّيمقراطيّة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعيّة. ففي أحد كتبه الرّئيسة، «أفول الأصنام»، يدعو «نيتشه» إلى مقاربة نقديّة يمكننا من خلالها الكشف عن الدّوافع السّرِّيّة لدى المثاليّين في جميع مناحي الحياة. إذ يكفي بحسب وجهة نظره انتزاع قناع حكمتهم المزيّفة حتّى ننتزع شرعيّة منطقهم الذي يبدو الأكثر صلابة، وذلك من خلال إظهار نواياهم الخفيّة.

في مقدّمة كتابه (جينيالوجيا الأخلاق) يقول «نيتشه»: «إنَّ أفكاري هي عن مصدر أحكامنا الأخلاقيّة المُسبَقة، إذ بها يتعلّق الأمر في هذا المؤلَّف السّجاليّ»[2]، ما يعني أنَّه انتهج الجينيالوجيا في بحثه الأخلاقيّ أداةً توسّل بها العودة إلى البدايات، وكيفيّة تكوّن الأشياء وظهورها؛ أي دراسة الجذور الخفيّة للأوهام التي تنقلها الأصنام سرًّا ومن ثم تفكيكها والكشف عنها. وفعليًّا يمكن القول: إنَّ «نيتشه» هو مَن ابتكر فلسفة (التّفكيك) قبل «هيدغير» (Martin Heidegger) و«دريدا» (Jacques Derrida)؛ بل يمكن الادّعاء أنَّ هذين المفكّرين يدينان له بما ذهبَا إليه.

1- فريدريك نيتشه، ما وراء الخير والشّرّ، ص 155.

2- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 20.

فكيف سوّغ «نيتشه» الهدم الجنيالوجيّ للأخلاق؟ وإلى ماذا استند في تحديد منظومته الأخلاقيّة؟

يُعدُّ «نيتشه» أهمّ من توسَّلَ المنهج الجنيالوجيّ وعمل على إرساء معالِمه انطلاقًا من التّاريخ. فمعنى الجنيالوجيا في النّسق النّيتشويّ يدلّ على تتبّع المسار التّاريخيّ لظهور المصطلح، وليس غايته السّرد التّاريخيّ الذي لا معنى له، وإنَّما تتبّع الفكرة من حيث نشأتها وتطوّرها من جهة، ونقدها والحطّ من قيمتها، وتاليًا إزاحة تلك القداسة التي كانت تتميَّز بها من قبل وضرورة تجاوزها.

من هنا، يظهر لنا أنَّ الجينيالوجيا، بحسب «نيتشه»، قراءة تقوم على مفهوم التّفكيك؛ تفكيك نموذج القول الذي يقوم عليه فعل التّفلسف الذي يتميَّز بإجراءات إقامة التّطابق بين المعنى والقيمة، وإجراء كبت الجسد وإقصاء البُعد البلاغيّ للخطاب الفلسفيّ. الجينيالوجيا تفكيك ناقد لمنطق الهُويَّة النّاهض على ثنائيّات متعارضة الصّدق/الكذب، الخير/الشّرّ، الدّاخل/الخارج... ومن جهة أخرى، يتحدَّد معنى الجينيالوجيا في كونها دراسة النّشأة والتّكوين لإثبات النّسب والوقوف عند الأصل، وليس المقصود بالأصل أنَّ الجينيالوجيا هي شجرة الأنساب. وهذا ما يؤكّده نيتشه نفسه في «جينيالوجيا الأخلاق»: «أنَّ الأمر يتعلّق بتأمّلات حول أصل أحكامنا الأخلاقيّة».

شرع «نيتشه» في هدمه الجينيالوجيّ للأخلاق، بدءًا من الفلسفة اليونانيّة مرورًا بالأديان وصولًا إلى فلسفات عصر التّنوير وتلك المعاصرة له، فوضعها تحت مجهر الشّكّ والتّساؤل بهدف معرفة طبيعتها ومصدرها وقِيَمها ووظائفها، وأعاد النّظر في المبادئ الأخلاقيّة بالعودة إلى منابتها الأصليّة بهدف معرفة مراحل تشكّلها وتطوّرها، ومن ثَمَّ نَقدها. ومع فلسفة المطرقة هذه، لم يعد الأمر يتعلَّق، بالنّسبة إليه، بمناقشة صحّة ادِّعاءات منافسيه، وإنَّما باقتلاع جذورها عن طريق كشف اللّعبة المزدوجة المُدرَكة إلى حدٍّ ما، والتي هي تعبير عنها، وذلك بهدم الأوهام التي تمنح شكلاً خادعًا.

في مقدّمة كتابه (الفجر) يُقدِّم «نيتشه» نفسه وكأنَّه وريث عصر الأنوار وخصمه في آنٍ. فهو يُعلن، بروح النّقد هذه، أنَّ الموسوعيّين أخذوا من «ديكارت» (René Descartes)، وهو ينوي دفعه إلى عواقبه الأخيرة، الأمر الذي قاده إلى أن يقف ضِدَّ مفكّري عصر الأنوار أنفسهم، ويتّهمهم بأنَّهم مذنبون؛ لأنَّهم توقَّفوا

في منتصف طريق معركتهم ضِدَّ أوهام الميتافيزيقا، وفشلوا في اكتشاف أصنام الإنسانيّة الجديدة. ففي الإيمان في التّقدّم، وفي فضيلة العلوم، وفي الدّيمقراطية، وحقوق الإنسان، وجد «نيتشه» سمات أعراض ديانة هدفها الخلاص الأرضيّ، ولكنّها مع ذلك هي دين. فأفكارها ومبادئها شبيهة بتلك التي تُكرّسها الأديان السّماويّة، إذ تدّعي وتسوّغ التّضحية بالنّفس من أجل الآخر، وتُدين أولئك الذين يرفضون الخضوع لمبادئها، وتفرض قوانينها على الجميع بصفتها المصدر الشّرعيّ الوحيد لمعنى الوجود البشريّ.

لقد نظر «نيتشه» إلى الأخلاق والقِيَم على أنّها ظواهر، وانطلاقًا من هذا المنظور الوضعيّ، عمد إلى إلغاء البُعدين الميتافزيقيّ والعقليّ للأخلاق. فشرع في فحص أخلاق عصره ليكشف أنَّها ذات طابعين؛ الزّهد الدّينيّ من جهة، والمعقوليّة الفلسفيّة من جهة أخرى. أمّا الطابع الأوّل، فقد كرّسته الأديان، وخصوصًا الدّيانة المسيحيّة، فيما عرف الثّاني ذروته مع فلسفة «أفلاطون» (Plato) الذي وحّد بين الأخلاق والألوهيّة، وجعل من الخير مبدأ الأخلاق ووجود الإله في الوقت نفسه. ومثله نجد «كانط» (Immanuel Kant)، في عصر التّنوير، الذي جعل الأخلاق أمرًا مطلقًا لا يُناقَش؛ لأنَّه مستمدّ من واجب عقليّ، فتعامل معها كأنَّها أوامر إلهيّة لا يمكن الطّعن فيها. هذا ما دفع «نيتشه» إلى تسميتها بأخلاق التّضليل والخداع؛ لأنَّها تطلب من الإنسان أن يُميت قواه الحيويّة، وهذا أمرٌ مستحيل ومخالِف لطبيعة الإنسان، ويتطلَّب منه أن يسلك مراتب العقل، وهذا أمرٌ يفوق طاقته.

وخلال عمليّة الهدم الجينيولوجيّ، شكّلت الحضارة عبر أحد مكوّناتها، وهي الثّقافة، اهتمام «نيتشه». فمن المعلوم أنَّ الحضارة هي مجموع القِيَم والأعراف والمؤسَّسات والمُثُل العليا. من هنا، وجد «نيتشه» أنَّ علينا البحث عن مصدر هذه المُثُل العليا، وكيفيّة وصولها إلينا على الصّورة التي نعرفها راهنًا. بعبارة أخرى، أراد «نيتشه» معرفة مصدر أخلاق حضارة ما، وتاليًا إيجاد الرّابط المشترك بين الحضارة والأخلاق.

في بداية مؤلَّفه (جينالوجيا الأخلاق)، يتساءل «نيتشه» ويُعبّر عن شكوكه في أصل الأخلاق؛ الأمر الذي قاده إلى التّفكير في أصل تحيُّزاتنا الأخلاقيّة في أصل الشّرّ، في مرحلة ما قبل الخير والشّرّ. فبالنّسبة إليه، يكمن أصل الأخلاق في الدّوافع، فهي ليست تلك المتعارف عليها أو تلك التي هبطت علينا من

عالَم المُثُل. وهكذا يشكّ ويشتبه ويتساءل حول كلّ ما هو قائم، فيخلص إلى أنَّ المُثُل الأخلاقيّة العليا ما هي إلّا قناع لإخفاء أصل يُعدّ مُخزيًا، وهو تعبير يستعمله «نيتشه» في مواضع كثيرة من مؤلّفاته. فثمّة شيء للإخفاء وليس للتّباهي، والمُثُل العليا لم تهبط من السّماء، إذ «الخير في ذاته» الأفلاطونيّ غير موجود، والمُثُل الأخلاقيّة العليا لا أساس لها في الوجود أو في الحقيقة المطلقة. إذًا، يبدي «نيتشه» ارتيابًا من أصل الأخلاق الحقيقيّ لنجده يجادل في الأصل الفكريّ والأنطولوجيّ المطلق والميتافيزيقيّ للأخلاق. وتاليًا، صار لزامًا مطاردة تحريف الدّوافع، واكتشاف وتقديم ما أُخفي، وهكذا نعود من المثال الأعلى الواضح إلى الأصل الخفيّ لهذا المثال.

انطلاقًا من شكّه في أصل الأخلاق، يقترح «نيتشه» صناعة التّاريخ الطّبيعيّ للأخلاق وكيمياء الأحاسيس الأخلاقيّة. نجد هذا المنهج في مؤلَّفه «إنسانيّ مفرط في إنسانيّته»، فهو يستعمل الفرضيّات ليكشف ماهيّة الحضارة والحقائق ومُثُل الحضارات العليا؛ ليطرح تساؤلاته حول الأخلاق والفنّ والمجتمع والمُثُل الاجتماعيّة والمؤسَّسات.

ولكي يجد إجابات عن هذه التّساؤلات، يدرس «نيتشه» الثّقافة والحضارة عبر الظّواهر، ليبحث عن التّناغم في تحليلاته، وليجد تناسقًا بين ظواهر الحضارة والعدالة والمرأة والزّواج وأنماط الدّوافع الغريزيّة ومُحرّك القسوة والثّأر والضّمير الأخلاقيّ والحقّ والعمل والدّولة... وكلّها مفاهيم تأخذ معناها وفاقًا لأصلها الذي يكمن دائمًا في الذّاتيّة، وليس في التّعالي، كما يؤكّد أفلاطون والميتافيزيقيّون الآخرون.

يهتمّ «نيتشه» في تفاصيل إشكاليّته قبل أن يضع الفرضيّة، ويرى أنَّ كلّ التّفاصيل تُساهم في وحدة معًا، ما يدلّ على أنَّ القِيَم الأخلاقيّة والمُثُل العليا التي تحكم سلوك الأفراد أو الجماعات في المجتمع ليس لها أساس ميتافيزيقيّ، ولا تُمنح الخلود المجرَّد النّظريّ والفلسفيّ، ولكنَّها ببساطة تعابير عن الواقع الاجتماعيّ وتاريخ المجتمعات وعلم النّفس وتيبولوجيا (معرفة نمط) الغرائز. والمُثُل العليا ليست سوى تمويه مجرّد وعدميّ للحقائق المضمرة أو المختبئة، ونوع من المظهر الوهميّ والعدميّ للإشكاليّة الشّهيرة التي تتّسع ويكبر حجمها؛ ألَا وهي الأخلاق التي تُقدَّم على أنَّها معطى دينيّ، أو ابتكار متعال. الأخلاق هي تيبولوجيا ووهم وخداع وأكاذيب، إنَّها خطأ فيلولوجيّ.

انطلاقًا من هذه النّظرة إلى الأخلاق، ثار «نيتشه» ضِدَّ التّراث الأخلاقيّ الذي اختزنته البشريّة، والذي تقيّدت به المجتمعات حتّى بدا راسخًا متأصِّلًا فيها، وكأنَّه مجموعة من المبادئ الأزليّة التي لا يجرؤ أحد على مناقشتها. فبحسبه، هذا التّراث الأخلاقيّ يتمثّل في العقلانيّة الفلسفيّة والزّهد الدّينيّ اللّذين شكّلَا المبادئ الأخلاقيّة التي التزم بها الإنسان منذ أن وُجدت.

وعليه، عمل نيتشه على نقد التّراث الأخلاقيّ بوجهَيه: الدّينيّ الكنسيّ والفلسفيّ، بدءًا من الأفلاطونيّة وصولًا إلى «هيغل» (Georg Friedrich Hegel) و«كانط» وكلّ المذاهب الفلسفيّة المعاصرة له. لذلك، فهو لا يفرّق بين هذَين العنصرَين كثيرًا، فالمبالغة في المعقوليّة، ويعني بها «أفلاطون»، يؤدِّي إلى خلق عالم من الأفكار المفارقة التي فَقَدَت كلّ صلة لها بالواقع العينيّ، وعندئذٍ تكون القاعدة الأخلاقيّة للسّلوك قريبة كلّ القرب من القاعدة الدّينيّة الزّاهدة.

فمن المعلوم، أنَّ فلسفة «أفلاطون» الأخلاقيّة ترتكز كلّها على إيمانه بمثال الخير الذي يشكّل أعلى المُثُل وأكثرها التصاقًا بالمفارقة والتّجرّد والبُعد عن المحسوس. يقول «نيتشه»: «أمّا أفلاطون فقد أراد أن يبرهن لنفسه، وبكلّ ما له من قوّة، وهي أكبر قوّة استطاع فيلسوف أن يبذلها حتّى الآن، أنَّ العقل والفطرة يتبعان تلقائيًّا غاية واحدة: الخير والله»[1]. ولهذا، كانت لا تختلف عن القواعد الأخلاقيّة المسيحيّة إلّا اختلافًا يسيرًا.

نقد التّراث الأخلاقيّ الفلسفيّ

في نقده للتّراث الأخلاقيّ أعاد «نيتشه» النّظر في القِيَم التي شكّلت الأخلاق، والتي ترسّخت عبر الأجيال، انطلاقًا من أصلها. وعليه، انطلق في تحديد مفهوم الأخلاق بتوسّله معول الجينيالوجيا منهجًا، وقد وجَّه خلال رحلته الجينيالوجيّة نقدًا جذريًّا طالَ الأُسس التي قام عليها هذا التّراث. فلم تنجُ الفلسفات القديمة ولا الأديان، وتحديدًا المسيحيّة، والفلسفات الحديثة بمذاهبها واتّجاهاتها كافّة، وكذلك العلوم الوضعيّة والطّبيعيّة، من نقده اللّاذع إلى حدِّ السّخرية. فانتقد مؤرّخي الأخلاق الذين ينقصهم الحسّ التّاريخيّ، كما يقول في (جينيالوجيا الأخلاق)[2]،

1- فردريك نيتشه، ما وراء الخير والشّرّ، ص 138.

2- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 20.

فهو قد صنّف القِيَم والعادات والأحكام الأخلاقيّة التي صدرت في الماضي عند مختلف الشّعوب، ليس وفاق نظرة تاريخيّة جوهرانيّة تعزل الذّوات والماهيّات عن الوقائع، وإنّما من خلال كشف أنماط التّفكير التي تُشوِّه الأحداث. فهو رأى أنّ جلَّ ما قام به مؤرِّخو الأخلاق هو أنّهم جعلوها موروثًا اجتماعيًّا وثقافيًّا غابت عنه تسجيل اللّحظة التّاريخيّة الأولى التي انبثقت منها المفاهيم الأخلاقيّة.

لذلك، نجده قد ردّ الأشياء والقِيَم الأخلاقيّة إلى القوى المتحكّمة في مجتمع ما، وربَطَ مفهومها بإرادة القوّة التي لا يمكن تصوّره من دونها؛ إذ أكّد «نيتشه» أنَّ ما يريده الإنسان، وكلُّ حيّ، هو زيادة القوّة. وقد تُفسّر هذه الزّيادة في القوّة تفسيرًا بيولوجيًّا على أنّها السّعي إلى خلق صنف جديد من البشر، صنف الإنسان المتفوّق، في حين أنّه كان يريد من إرادة القوّة قلْب القِيَم ونسف أخلاق القطيع من التّافهين والضّعفاء، واستعادة أخلاق الأسياد التي تشكّل الأساس الذي بُنيت عليه القِيَم الأخلاقيّة على مرِّ العصور.

من هنا، رأى نيتشه أنّه عند النّظر في شيءٍ ما، يجب البحث في القوى التي تستحوذ عليه التي تُعبّر عن نفسها فيه، وتتخفّى فيه في الوقت نفسه. وبناءً على ذلك، وجّه انتقادًا إلى علماء النّفس الإنكليزيّين في بحثهم في أصل الأخلاق، فإذا كان هؤلاء يرون مثلًا أنَّ الخير ينتج عن الحكم على الفعل غير الأنانيّ الذي يُصدره من يعود عليهم هذا الفعل وينتفعون به، ثمّ نُسيَ هذا الأصل وأصبح يطلق الحكم (حسن) على الأفعال الإيثاريّة غير الأنانيّة، فإنَّ «نيتشه» يرى مقابل ذلك أنَّ الحكم على فعل بأنّه (خير) لم يصدر عن هؤلاء الذين وقع عليهم فعل الخير، المتلقّين له؛ بل عمَّن صدر عنهم، وهم البشر الأقوياء ذوو المنزلة السّامية والأرقى، وهم أنفسهم الذين صنّفوا ذواتهم أخيارًا وحكموا على أفعالهم بأنّها خيّرة. فأسّسوا بذلك تقدير هذه الأفعال، وأعطوا لأنفسهم حقّ خلق القِيَم وتحديدها انطلاقًا من هذا الشّعور بامتيازهم عن الآخرين. هذا الشّعور بالتفوّق والاختلاف، كما يؤكّد «نيتشه»، هو أصل التّمييز بين الخير والشّرّ، وتاليًا، فإنَّ مفهوم الأخلاق هو من صنع الأقوياء الذين يفرضون المفاهيم بكلّ أشكالها وإشكالاتها[1].

في المقابل، أراد «نيتشه» أن يُثبت أنَّ الأخلاق هي حِيَل أو خدع نفسيّة يبتكرها البشر للتّأقلم مع الوضع التّاريخيّ الذي يعيشونه. فالعبيد صنعوا لهم أخلاقًا يحفظون

1- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 20-22.

بها بقاءهم والسّادة كذلك. لكنَّ المتأمِّل في تحليل «نيتشه» لأصل الأخلاق يجد أنَّه قد ركَّز على الجانب العمليّ منها؛ أي التّحليل النّفسيّ والاجتماعيّ لأخلاق الجماعات. فهو يرى أنَّ المطالبة بأخلاق واحدة للجميع يعني الإضرار بالإنسان الأعلى تحديدًا، وهذا فيه ردٌّ على «الإلزام المطلق» عند «كانط» الذي بنى منظومته الأخلاقيّة على أساس يقينيّ مطلق، ينطبق على جميع النّاس، وذلك عندما قال بوجود مبدأ قبليّ (Apriori) مستقلّ عن الخبرة الإنسانيّة ينبغي أن يحكم إرادتنا، وأسماه «العقل العمليّ»[1]، وهو ينظّم السّلوك البشريّ؛ أي عبارة عن واجب أو أمر ملزم يسمّيه أمرًا مطلقًا.

هذا ما رفضه «نيتشه» انطلاقًا من إيمانه بضرورة تحرير الإنسان من كلِّ معتقد أو قيمة؛ لأنَّه لا قاعدة يمكن أن تُشكّل المرجعيّة لأيِّ فعل خلقيّ، وتاليًا فإنَّ الأخلاق بصيغتها الكانطيّة هي وَهْم؛ لأنَّها برأيه النّسخة الأخرى مِنَ الدّين الذي طالب بموته. فإنسان نيتشه مطبوع على القوّة والغريزة المتحرّرة من القيود، والإنسان الأخلاقيّ الذي تَصوَّره «كانط» ليس سوى ذلك الضّعيف الذي لا يملك القدرة على إظهار طبيعته الشّريرة. هكذا نجد أنَّ إنسان «نيتشه» ليس سوى ذاك الكائن المليء بغرائز الحرب والوحشيّة، وبهذا السّلب ذاته تتقدَّم البشريّة عبر إنكار كلّ القِيَم، وتفعيل دور الطّبيعة الفطريّة للبشر المنقسمين إلى أقوياء وضعفاء[2].

وفي سعيه نحو ظهور الإنسان الأعلى المتفوِّق، رأى «نيتشه» ضرورة تحطيم مفاهيم مثل: الخير والعقلانيّة والضّمير، والتي ترسَّخت في اللّاوعي التّاريخي الإنسانيّ، وتاليًا فهي مفاهيم مثبطة وغير حقيقيّة. لذلك، فهو يرى أنَّ ثمَّة تراتبيّة بين إنسان وإنسان، وتاليًا بين أخلاق وأخلاق، وهو يرفض أخلاق القطيع؛ «إنَّ

1- شكّل العقل العمليّ لدى كانط معيارًا للأخلاق، إذ يقوم هذا العقل بتعيين الإرادة المشرّعة للفعل، ولأنَّ الإنسان هو من يُشرِّع لنفسه، فهو إذًا صانع الفعل بإرادته الحرَّة ومحدّد له. والفكرة المحوريّة التي أدخلها كانط في مذهبه أنَّ أخلاقيّة الفعل الخلقيّ تكمن في الفعل نفسه، وعدم انزياحه لقيمة خارجة عنه كي لا يصبح فعلاً غائيًّا بهدف منفعة ممَّا يفقده قيمته الخلقيّة، فاحترام القانون الأخلاقيّ هو الدّافع إلى الفعل الخلقيّ، ولذلك تُسمَّى أخلاق كانط بأخلاق الواجب من أجل الواجب.
عمانوئيل كانط، أُسس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 167-168.

2- فريدريك نيتشه، ما وراء الخير والشّرّ، ص 62.

الأخلاق في أوروبّا اليوم هي أخلاق حيوان القطيع»[1].

ويقصرُ حقُّ خلق الأخلاق على السّادة، وذلك تبعًا لنظريّة أخلاق السّادة والعبيد التي يعرضها لنا في فقرة مطوَّلة في (ما وراء الخير والشّر)، فيقول: «أثناء تجوالي بين أنواع الأخلاق التي سادت إلى اليوم على الأرض، وما تزال، عثرت على سمات معيَّنة ارتبط بعضها ببعض وظهرت بصورة منظّمة، حتّى ظهر لي في النّهاية نوعان أساسيَّان بينهما فارق جوهريّ، هما: أخلاق السّادة وأخلاق العبيد»[2]. فالعبد أو الضّعيف يتصرّف بما يُمليه عليه عقله العمليّ الكانطيّ الذي هو مصدر الحرِّيّة، وتاليًا يملي على الإنسان حرِّيّة الاختيار.

يبدو جليًّا أنَّ هذا الانقسام العموديّ للأخلاق بين سادة وعبيد قد شَكَّل الأساس البنيويّ لنظرة «نيتشه» إلى التّاريخ القيميّ للأخلاق. فكانت نشأة القِيَم من الإشكاليّات التي بحث فيها وحمل معوَله الجينولوجيّ لهدم بنائها التّاريخيّ وإعادة تشكيلها وفاقًا لمفهومه.

القيم الأخلاقيّة وسلطة اللّغة

ذكرنا، في أكثر من موضع، أنَّ «نيتشه» يلجأ إلى الهدم الجينالوجيّ للبحث في منشأ الأخلاق وقيَمها، مستعينًا بخلفيّته الفيلولوجيّة في بحثه عن أصل المعاني أو الصّفات اللّصيقة بالأخلاق، فبالنّسبة إليه لا توجد معانٍ أخلاقيّة ثابتة، وإنَّما توجد سلسلة لا متناهية من التّأويلات المختلفة التي تتعاقب عليها، أو هو تاريخ تعدّد المعاني واختلافها. وعليه، فإنَّ «نيتشه» لا يهتمّ بالبحث في جوهر الأخلاق وماهيّتها، وإنَّما يهمّه معرفة الكيفيّة التي تُسمَّى بها المعاني أو المبادئ الأخلاقيّة، فالجوهر بالنّسبة إليه ثابت، وإنَّما تتعرّض التّصوّرات إلى التّغيُّر تبعًا للإدراك الحسّيّ، كما أنَّ المعنى الظّاهر قد يكون هو المعنى الهشّ الذي يُغطّي خلفَه معنًى خفيًّا، وهذا المعنى هو المطلوب اكتشافه ومعرفة غاية إنكاره.

على ذلك، عابَ «نيتشه» على الفلاسفة القدماء طريقتهم في التّفكير التي هي أساسًا لا تاريخيّة، فيقول: «فبداهة أصل الأخلاق لديهم تبدو منذ الوهلة الأولى بمجرَّد ما يتعلّق الأمر بتحديد أصل (الحسن) الذي هو حكم ومفهوم. وفي البدء

1- فريدريك نيتشه، ما وراء الخير والشّرّ، ص 153.

2- المرجع نفسه، ص 257.

يقولون تـمَّ الثّنـاء على الأعمـال التي لا أنانيّـة فيهـا وعُـدَّت حَسَـنة مـن طـرف الذيـن اسـتفادوا منهـا وانتفعـوا بهـا، ولاحقًـا طـوى النّسـيان أصـل هـذا الثّنـاء ووجـد النـاس بـكلّ بسـاطة أنَّ الأعمـال غيـر الأنانيّـة حسـنة لأنَّهـا عـادة»[1].

إذًا، مـا كان يهـمّ «نيتشـه» ليـس المعنـى أو الصّفـة الأخلاقيّـة، بعبـارة أخـرى معنـى الكلمـة، وإنَّمـا الـذي يملـك سـلطة الكلمـة، والقـوى التـي تتصـارع فـي اللّغـة، ومـن ضمنهـا القـوى التـي تمتلـك سـلطة التّأويـل. فاللّغـة تبـدو عند نيتشـه حلبة لاسـتراتيجيّات السّـيطرة، ويبـدو هـذا واضحًـا فـي فقـرة «اللّغـة كعلـم مزعـوم» فـي كتـاب (إنسـانيّ مفرط فـي إنسـانيّته)؛ إذ يـرى أنَّ أهمِّيّـة اللّغـة بالنّسـبة إلـى تطـوّر الحضـارة، تكمـن فـي كـون الإنسـان قـد أسّـس فـي داخلهـا عالمًـا خاصًّـا بـه موازيًـا للعالـم الآخـر، موقعًـا كان يعـدّه مـن المتانـة فـي الاسـتناد إليـه مـن أجـل إجـراء تغييـر جـذريّ على بقيّـة العالـم وتنصيـب نفسـه سـيّدًا عليـه.

لقـد اعتقـد الإنسـان، بحسـب «نيتشـه»، أنَّـه بوسـاطة اللّغـة قد اكتسـب معرفـة العالم، فـي حيـن، وأيضًـا ـ بحسـب فيلسـوفنا ـ فـإنَّ اللّغـة ليسـت سـوى الدّرجـة الأولـى مـن مسـار السّـعي إلـى العلـم[2]. وبنـاءً على نظرتـه إلـى علميّـة اللّغـة، فقـد رأى أنَّ أصـل اللّغـة هـي فعـل (سـلطة) حـقّ السّـيّد الـذي بموجبـه تتـمّ تسـمية الأشـياء، بحيـث يمكننـا عـدّ أصـل اللّغـة نفسـه بمثابـة فعـل سـلطة يصـدر عـن الحاكميـن. يقـول: «هـذا الشّـيء هـو كـذا وكـذا، يربطـون الشّـيء والحـدث بكلمـة فيمتلكونهمـا»[3].

وبمـا أنَّ القِيَـم الأخلاقيّـة، بوجههـا الفيلولوجـيّ، وبحسـب «نيتشـه»، تصـدر عـن جنـس قـويّ غالـب أدرك تميّـزه عـن الجنـس المغلـوب، أو عـن العبيـد المغلوبيـن. وعليـه فـإن الجنـس الأقـوى الغالـب هـو مـن يحـدد مفاهيـم الأخـلاق وقِيَمهـا، والنّبـلاء هـم مَـن يحـدّدون الأخـلاق. إنّهـم خالقـي الأخـلاق؛ الأخـلاق التـي تُمجّـد الـذّات، وجوهرهـا الشّـعور بالتّدفّـق والامتـلاء[4].

وإذا كان يمكـن التّمييـز بيـن الإصـلاح الخلقـيّ والثّـورة الأخلاقيّـة، بكـون وظيفـة الأوّل المحافظـة علـى الأخـلاق المتعـارف عليهـا، فيمـا وظيفـة الثّانيـة رفْـضُ هـذه

1- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 20.

2- فريدريك نيتشه، إنسانيّ مفرط في إنسانيّته، ص 31.

3- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، مرجع سابق، ص 21.

4- فريدريك نيتشه، ما وراء الخير والشّرّ، ص 146.

الأخلاق والتّمرّد عليها بابتكار أخلاق جديدة، فإنَّه من بين مختلف الفلاسفة يقف «نيتشه» بمفرده باحثًا عن التّغيّر الذي يُمثّل ثورة أخلاقيّة على التّقاليد الرّاسخة من أجل إبداع أخلاق جديدة هي أخلاق القويّ الذي يفرض قوانينه ومفاهيمه.

لقد أراد «نيتشه» الخروج بأطروحة تفيد أنَّ الإنسان هو منتج القِيَم، وهذا انقلاب على التّفكير الذي كان سائدًا. فقد شيَّد «سقراط» (Socrates) بناء الأخلاق على العقل، وتاليًا عدّه مصدر قِيَم الفضيلة والسّعادة، وسار تلميذه «أفلاطون» على المنهج الفلسفيّ نفسه، إذ جعلته فلسفته المثاليّة يطارد قيمة الحقيقة والرّوح بحثًا عن المثال الأعلى وأصل الأشياء والكائنات في العالم الميتافيزيقيّ. في حين اختار مؤسِّس الفلسفة العقلانيّة، الفيلسوف الفرنسيّ «ديكارت»، ممارسة الفعل الفلسفيّ النّقديّ لما هو لاهوتيّ في إطار صراعه الخجول ضِدَّ رجال الدِّين، ليستسلم في نهاية بحثه الفلسفيّ للفلسفة التّأمليّة المثاليّة المبنيّة على أساس قِيَم متعالية صرفة، على الرّغم من أنَّه اعتمد المنهج العلميّ الدّقيق في الوصول إلى إثبات حقائقها الإيمانيّة.

أمَّا الفيلسوف الألمانيّ «كانط»، فقد دافع بدوره عن التّصور العقلانيّ الخالص لقيمة العقل، فنظر إلى العقل من منظور نقديّ، مصوّرًا إيَّاه قيمة مُثلى لا يمكن التّشكيك في حقيقتها في كتابه «نقد العقل المحض»، ليتراجع في كتابه الثّاني «نقد العقل العمليّ» عن الكثير من آرائه الفلسفيّة النّقديّة، وقد صرّح أنّ الخوض في كثير من الحقائق والمُثُل والمبادئ البشريّة لا يمكن أن يكون عقلانيًّا خالصًا بشكل مطلق؛ لأنَّ للعقل البشريّ حدودًا تُقيِّد انطلاقه، وقدرات لا يجب الخروج عنها. وتاليًا، فالبحث الفلسفيّ العقلانيّ، كما مارسه «كانط»، في إطار مبحث القِيَم والأخلاق، وخصوصًا ما له علاقة بالميتافيزيقا، مثل المسألة الدّينيّة لا يمكن أن تُعالَج إلَّا وفاق منظور نقديّ عقلانيّ، في حدود القوى الممكنة التي يجب أن تأخذ في الحسبان القدرات المحدودة للعقل البشريّ في حلِّ بعض معضلات المسألة الميتافيزيقيّة.

ومن هنا، جاء نقد «نيتشه» لهؤلاء الفلاسفة، فبرأيه أنَّهم نظروا إلى القِيَم على أنّها مسألة مثاليّة وعقليّة خالصة، يجب الدّفاع عنها وعن مصداقيّتها التي لا تناقش، بينما عدّ هو القِيَم مبحثًا أساسًا، وليس وسيلة لتأكيد مبدأ العقل والبحث عن إثبات الحقيقة. وتاليًا، فقد عَدّ مسألة القِيَم غاية في ذاتها، يجب أن تَحظى

بأولويّة كبرى ضمن اهتمامات أيّ فيلسوف يرغب في ممارسة الفعل الفلسفيّ الجيّد والمسؤول.

الإنسان خالق القِيَم

وكما «بروتاغوراس» (Protagoras) السّفسطائيّ الذي رأى أنَّ الإنسان هو مقياس كلّ شيء، ذهب «نيتشه» إلى أنَّ الإنسان هو مَن يضفي القِيَم على كلّ الأفعال التي تصدر منه، والإنسان هو مقياس كلّ شيء، وهو خالق القِيَم ومبتكر أحكامها الأخلاقيّة. من هنا، دعا إلى قلب القِيَم السّائدة التي رسّختها الفلسفات والأديان الوثنيّة منها وكذلك الإبراهيميّة، وتحديدًا المسيحيّة واليهوديّة. فحاول، متأثّرًا بالدّاروينيّة، أن يردّ القِيَم الأخلاقيّة إلى أصول حيويّة عضويّة رافضًا قِيَم عصره. وبدا ذلك جليًّا في كتابه (إرادة القوّة) الذي يُعدُّ محاولة فلسفيّة جادّة للبحث في القِيَم الأخلاقيّة، ليؤكد أنَّها ـ سواء كانت وليدة الدّين أم الفلسفة أم حتّى الفكر الإلحاديّ ـ هي صنيعة الإنسان ذاته، وأنَّها أُضيفت إلى هذا العالم تلبية لمطالبه وحاجاته من دون أن يعوقه عائق. فالحياة، إذًا، هي الحلقة التي ربط من خلالها نيتشه بين الإنسان والقِيَم، ليضيفها فيما بعد على كلِّ ما في الطّبيعة من مظاهر، فالحياة أصل القِيَم العقليّة والأخلاقيّة[1].

لقد عمد «نيتشه» إلى إعادة البحث في الأخلاق وقِيَمها متوسّلًا الاستقراء التّاريخيّ لنشأتها. فحين تحدَّث مثلًا عن قيمتَيّ الخير والشّرّ، على أنّها قيم أخلاقيّة متعالية، قرنهما بالشّروط التّاريخيّة والجغرافيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة للإنسان وفاق منطق التّفاعل الحتميّ بين ما هو ذاتيّ بشريّ وما هو موضوعيّ طبيعيّ واجتماعيّ تاريخيّ.

من هنا، نجد إصرار «نيتشه» على تقييمه لنشأة الأخلاق عبر التّاريخ، ليبحث في الصّراع الذي يحكم العلاقات بين النّاس منذ أقدم العصور. فهو رأى أنَّ الحضارات الكبرى قد نشأت بفضل الجهود العظيمة التي قامت بها طائفة من الأرستقراطيّين على شكل حيوانات شقراء، حينما فرضت إرادتها على الشّعوب التي قطنت في آسيا وأوروبّا، فكانت أساسًا لنشأة الحضارات اليونانيّة والرّومانيّة والجرمانيّة؛ إذ اخترعت لها الشّرائع من القِيَم الأخلاقيّة المستندة إلى قوّة جسميّة

1- فريديريك نيتشه، إرادة القوّة: محاولة لقلب كلّ القِيَم، ص 12.

وصحّة زاهرة، فضلًا عن كلّ ما يتّصل بالقوّة والغزو والحرب والمخاطرة والصّيد والرّقص والألعاب البدنيّة. وقد ظهر ذلك جليًّا في المدن اليونانيّة التي تحقّق فيها بنجاح ذلك الانتصار المتمثّل بالقول والتّحطيم الباعث على شعور الأرستقراطيّ الأخّاذ بالفوز وهو يُعذِّب الآخرين[1].

إذًا، لا معنى للحديث عن قِيَم مثل الجمال والقبح إلّا في إطار واقع الإنسان الممارِس لأفعال: الحكم والتّفكير، التّقويم والتّأويل، والصّراع ضِدَّ الطّبيعة والواقع الاجتماعيّ السّائد. بمعنى أنَّ درجة التّحديد الأنسب لمعاني قِيَم القبح أو الجمال، والشّرّ أو الخير، والسّعادة أو الشّقاء، ترتبط في عمقها بمستوى الإنسان الفكريّ والاجتماعيّ والطّبقيّ العامّ، وببيئته الثّقافيّة حيث يعيش ويُفكّر ويُصارع، وأيضًا، بواقعه التّاريخيّ الحضاريّ العامّ وبشروطه القوّيّة أو الضّعيفة المحيطة به. فالخير قيمة يفرضها الإنسان بالقوّة التي بحوزته، قوّة الإنسان القادر على ممارستها فرضًا واختيارًا، ليس فقط كمبدأ وقيمة مجرَّدة، ولكن، أيضًا، كسلوك عمليّ يفرضه بالقوّة.

من هنا، فلا معنى لطرح ومناقشة مفهوم القِيَم في النّسق الفلسفيّ النّيتشويّ من دون تحليل أُسسه العميقة، وتفسير أبعاده المتوالية في صلتها الوثيقة بمفهوم الإنسان أوّلًا، كما ذكرنا سالفًا، وثانيًا بالتّركيز على مفهوم القوّة والهيمنة الذي يعني عند نيتشه القدرة القصوى في فرض المعنى المُراد، وتحقيق القِيَم المرغوب فيها فرضًا.

ولكن إذا كان «نيتشه» يصرّ على أنَّ واضع القِيَم الأخلاقيّة هو الإنسان المتفوِّق، فكيف نفسّر إذًا اعترافه الضّمنيّ: أنَّ الضعفاء هم أيضًا واضعو قِيَم أخلاقيّة؟ أليس هذا تناقضًا في منظومته الأخلاقيّة؟

لقد اعتقد «نيتشه» بوجود نمطَين مِنَ الأخلاق: أخلاق السّادة وأخلاق العبيد، كذلك القِيَم المنبثقة عنها أيضًا مقسّمة على هذا النّحو. غير أنّه رأى أنَّ القِيَم الأخلاقيّة النّبيلة، واستنادًا إلى بحثه الجينيولوجيّ، متولّدة في ذاتها، فيما أخلاق العبيد تأتي تبعًا لإدراكات العالم المحسوس. وتاليًا، فإنَّ القيم الحقيقيّة هي تلك المتولّدة من الإنسان السّيّد الذي يتمتّع بوعي داخليّ غريزيًّا، بالحرّيّة والقوّة والإرادة اللّامحدودة المرتبطة بالفعل؛ أي موجودة في ذاته والتي لا تحتاج إلى فعل خارجيّ يُحتّم عليه ردّ فعل. وتاليًا، فإنَّ هذا الإنسان المتفوّق هو الجدير بأن تكون قِيَمه هي السّائدة.

1- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 33.

يقول «نيتشه»: «فأخلاق العبيد تحتاج دائمًا وقبل كلّ شيء لكي تولد إلى عالم معادٍ لها برَّانيّ، إذا تحدّثنا فيزيولوجيًّا، إلى مُحفّزات خارجيّة لكي تقوم بالفعل، ففعلها هو بالأساس ردّ فعل. والعكس هو ما يحدث حين يكون السّادة هم من يقيّمون القِيَم، فيكون هذا التّقييم ونموّه تلقائيّين لديهم، ولا يبحثون عن نقيضه إلّا لكي يثبتوه لأنفسهم بمزيد من الفرحة والعرفان»[1].

ولكنٍ أليس هذا تناقضًا في موقف نيتشه تُجاه الأخلاق بالمنظور الكانطيّ! عندما يؤكّد أنَّ قِيَم النّبلاء الأخلاقيّة متولّدة من عقولهم، فيما العبيد يخلقون القِيَم وفاقًا لغرائزهم وكلّ ما هو محسوس.

يتّضح لنا أنَّ مسألة القِيَم، ومن ثَمَّ مسألة الأخلاق عند «نيتشه»، مرتبطة أقوى الارتباط بخلفيّة فكريّة مادِّيّة تستند إلى منظور نقديّ تفكيكيّ صارم، يُبيِّن مدى تشبّعه بالفكر العقلانيّ المادِّيّ الجدليّ والمُدمِّر للفكر المسالم والمساير لما هو ثابت وتقليديّ. لكنَّه على الرّغم من ذلك، لم يتخلَّص، أو لنقل لم يقدر على الانفلات بشكل قطعيّ ونهائيّ، من قدر التّفكير المثاليّ الميتافيزيقيّ المفرط والمغرق في عقلانيّته المجرَّدة.

من هنا، نجد أنَّ فلسفته العقلانيّة النّقديّة والتّفكيكيّة قد تفوَّقت بشكل كبير في الدّعم والدّفاع عن قِيَم وأخلاق السّموّ والرّقي والقوّة والتّميّز، والتي سمّاها أخلاق الأسياد والنّخبة الأرستقراطيّة التي كان يشكّلها أهمّ الفلاسفة والمثقّفين الذين يُمثّلون ذلك الفكر النّخبويّ. هؤلاء الذين يُعدّون، في نظر «نيتشه»، والذي كان واحدًا منهم، الورثة الحقيقيّين للماهيّة الجوهريّة للإنسان؛ أي ذلك الفرد القادر على أن يحيا الحياة كما عاشها «ديونيزوس»[2] (Dionysus)، والذي يقوّم العالم من منظور ثقافة الجسد والقوّة والطّموح المتزايد، ويكون أيضًا قادرًا على تفسير الوقائع البشريّة بالتّفسير التّاريخيّ والطّبيعيّ والجينيالوجي المعقول، كما فسّرها نيتشه نفسه؛ أي تقويم القيم وتأويل الأخلاق وتفسير المبادئ الموروثة لا بالمنطق

1- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 30.

2- ديونيسوس أو باكوس أو باخوس في الميثيولوجيا الإغريقيّة، هو إله الخمر عند الإغريق القدماء وملهم طقوس الابتهاج والنّشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقيّة. وجرى إلحاقه بالأوليمبيّين الاثني عشر. أصوله غير محدَّدة لليونانيّين القدماء، إلَّا أنَّه يُعتقد أنَّه من أصول آسيويّة، كما هي حال الآلهة آنذاك. كان يُعرف، أيضًا، باسم باكوس أو باخوس. www.wikipedia.0rg/wiki

التّقليديّ المتعالي البسيط، ولكن وفاق منطق الإنسان الأعلى والمتفوّق على أقرانه من البشر الذي يجب ـ حسب نيتشه دومًا ـ أن يتجاوز الإنسان العاديّ والطّاغي والمهيمن[1].

لقد سعى «نيتشه» إلى رسم اتّجاه نحو تاريخ حقيقيّ للأخلاق، يُفكّك شيفرة النّصّ الذي يتحدَّث عن ماضي الأخلاق البشريّة. لذلك، نجده غالبًا ما يستحضر معرفته الفيلولوجيّة لتحديد كثير من المعاني المرتبطة بمفهوم الأخلاق، ويقترح نيتشه في نهاية فصل الصّالح والشّرير في (جينيالوجيا الأخلاق) وضع الأُسس والشّروط التّمهيديّة من أجل تحديد قيمة القِيَم، بدراسة تطوّر المفاهيم الأخلاقيّة عن طريق الإفادة من جهود الفيلولوجيا والطّبّ وعلم النّفس. «وعلى كلٍّ هذه العلوم أن تُهيِّئ منذ الآن مهمَّة الفيلسوف المستقبليّة، وهي تقتضي منه أن يحلّ مشكلة التّقييم ويُحدّد تراتبيّة القِيَم»[2].

الأخلاق بين السّادة والعبيد تاريخ صراع

الباحث في تأريخ «نيتشه» للأخلاق يجده تاريخ صراع حادّ بين أخلاق السّادة وقِيَمهم وأخلاق العبيد وقِيَمهم؛ إذ يبدأ العبيد ثورتهم، فيقلبون ما اتَّفق عليه السّادة من أوضاع، ويُبدّلون قِيَم السّادة بقِيَمهم المتخلِّفة ـ بحسب نيتشه ـ، ويحاول السّادة إعادة الأمور إلى طبيعتها بصراع مضادّ. إذًا، ثمّة صراع أبديّ بين قِيَم السّادة وقِيَم العبيد. وحرب العبيد ضِدَّ السّادة في عرفه غير متكافئة، لأنَّها لا تعتمد على (القوّة) و(البساطة) و(الشّجاعة)؛ بل دعامتها اللّؤم والخبث والضعف، فيصبح الخير شرًّا والعكس بالعكس، ما يُحفِّز السّادة على استعادة مكانتهم وحماية قِيَمهم، ويتحقّق لهم ذلك؛ لأنَّ أخلاقهم أخلاق الأقوياء. ومقياس أخلاقيّة الفعل عند «نيتشه» هو تعبيره عن روح (القوّة) التي يستشعرها المرء في ذاته، وهذا الفعل يجب أن يلائم تلك النّفوس الزّاخرة التي تشعر بأنَّها هي التي تمنح القِيَم وتخلقها. ولكن بسبب تكتّل العبيد وكثرة عددهم، يتحقّق لهم الانتصار على السّادة[3].

هذا هو جدل الصّراع عند «نيتشه»، صراع ثنائيّ بين قِيَم متناقضة ورغبات

1- فريدريك نيتشه ما وراء الخير والشّرّ، ص ص 180-177.

2- فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص 46.

3- المصدر نفسه، ص 29.

متفاوتة، تؤدّي فيه القوّة تارةً دور المؤثِّر وتقابلها الكثرة تارةً أخرى. وإنَّ التّاريخ صراع بين قِيَم القوّة والكثرة، مسيرة هذا الصّراع متفاوتة بين الهدم والبناء، ومهمَّة السّادة الهدّامين الخالقين ـ كما أعلنها «زرادشت» (Zarathustra)ـ هي العمل على هدم قِيَم العبيد وبناء عالَم المبدعين، وهم الأقوياء ـ بحسب نيتشه ـ، بما يُمهِّد لظهور رمز التّطوّر التّاريخيّ البيولوجيّ، ونعني به الإنسان المتفوّق.

العبيد عند نيتشه

ويبقى السّؤال: مَنْ هم العبيد الذين لا ينفكّ نيتشه ينتقدهم؟ ذكرنا، في أكثر من موضع في هذا البحث، أنَّ نقد «نيتشه» للتّراث الأخلاقيّ رافقه تحليل نفسيّ واجتماعيّ عبر التّاريخ يُمثِّل، بالنّسبة إليه، ثنائيّة بين أخلاق العبيد وأخلاق السّادة. أخلاق العبيد هي أخلاق نفعيّة؛ أي يتَّصف بها الفقراء والضّعفاء ليحصلوا على مصالحهم الشّخصيّة، على سبيل المثال: الضّعيف يُطيع مَنْ هُمْ أقوى منه حتَّى يكسب ودّهم ويستفيد منهم وليس حبًّا بهم. أمَّا أخلاق السّادة فهي: الشّجاعة وإرادة القوّة والاعتماد على النّفس والفخر، وهذا النّوع من الأخلاق هو الذي يُفضّله. وهذا الامتداد الزّمنيّ والتّفكير الدّائم يوضح أنَّ القِيَم تصدر من إرادة أساسيّة للمعرفة.

إذًا، يتكلّم «نيتشه» عن أخلاق العبيد، بصفتها نتاج إنسان منحطّ وضعيف، لا قدرة له على تغيير واقع حياته وقدره المحتوم. وتاليًا، فهذا الإنسان الضّعيف الذي ينعته فيلسوفنا في كتاباته بالإنسان العاديّ والمتوسط، هيمن على الرّغم من ذلك ـ إلى هذا الحدّ أو ذاك ـ على كلّ مسار التّاريخ البشريّ، بكونه كائنًا بشريًّا يستسلم للموروث القيميّ القائم، ويقود ويطلب دومًا أن يبقى منسجمًا مع ثوابت طبيعته التّقليديّة البيولوجيّة، رافضًا أيّ تغيير أو تبديل لواقعه المنحطّ بواقع قِيَميّ أرقى ومختلف. وهو في نهاية المطاف إنسان يكتفي بإنتاج ثقافة الخضوع وإعادة إنتاجها، ويواصل رحلة استهلاكها وإعادة تكريسها ودعمها، في الوقت نفسه، من منظوره المتشبّع بإرادة الضّعف وأخلاق العبيد وجماعة القبيلة المنظّمة، على نسقِ عادات وأفكار وقِيَم سائدة تُعدّ مُسلَّمات، لا يجوز مسّها أو الخروج عليها.

من هنا، فإنّ الأحكام الأخلاقيّة وقِيَمها وتسميات الخير والشّرّ ترجع إلى إطلاق

أحكام حول الأفعال التي تسلكها الطّبقات المُهيمنة، وهي ترجع إلى اللّغة، واللّغة عند «نيتشه» ـ كما ذكرنا سابقًا ـ في أصلها فعل من أفعال السّلطة صادر عمَّن لهم الغلبة والسّيطرة. «فتسمية الشّيء هي التي تملكه».

إنَّ إيجاد مقياس للأخلاق ورؤية القِيَم هي ما هدف إليه نيتشه، وهذا ما يستدعي وجود مراقب محايد خارج نطاق أنواع الأخلاق المتعارَف عليها. فالأخلاق الأوروبيّة التي تُمجِّد قِيَم الشّفقة والمساعدة المتبادلة والمواساة، وأخلاقنا المتساوية والعالميّة، هي نتيجة انتفاضة العبيد، والتّعبير عن انتصار قِيَمهم وغرائزهم على القِيَم الأرستقراطيّة وغرائزها. لقد عرَّف «نيتشه» كيفيّة التّكيَّف مع أشدّ التّناقضات للفروق الدّقيقة التي تغيّر معانيها بشكل كبير، ومن دون أن ننسى أنَّ هذا التّصنيف لا يحتوي على أيِّ شيء اجتماعيّ حوله، وغير مصنّف للفردانيّات على هذا النّحو، وحتّى أقل من أيّ شيء بيولوجيّ، فكيف يمكن أن يكون هذا التّصنيف موحيًا للفكر الأخلاقيّ الحاليّ؟

لقد نظر «نيتشه» إلى الأخلاق والقيم الأخلاقيّة بوصفها ظواهر بشريّة من صنع البشر أنفسهم، فالنّاس كما يقول: هم الذين أعطوا لأنفسهم كلّ خيرهم وكلّ شرّهم، إنَّهم لم يتلقّوا ذلك من قوّة عُليا ولا هبط إليهم من السّماء، وإنَّما الحياة، حياتهم اليوميّة، وحاجاتهم الفيزيولوجيّة والاجتماعيّة هي التي تدفعهم إلى إضفاء قِيَم معيّنة على الأشياء. إذًا، فالقيم الأخلاقيّة ليست أبديّة ولا مطلقة، وإنَّما هي نسبيّة تابعة للتّغيّر الذي يلحق دوافعها البيولوجيّة والفيزيولوجيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة.

لقد سعى «نيتشه» ـ في ما يرى «دولوز» (Gilles Deleuze) ـ إلى خلق مشكلة القِيَم والتّقويم، وهو الذي وجَّهه الفلاسفة إلى تأسيس الأكسيولوجيا. فالقِيَم في نظر عدد كبير من الباحثين هي محور فلسفة «نيتشه»، الذي عمل على إدخال مفهومَي المعنى والقيمة إلى الفلسفة. لقد أراد تجاوز الميتافزيقا الغربيّة كلّها بتحويلها إلى جينالوجيا، وهو لم يخفِ يومًا أنَّ فلسفة المعنى والقِيَم يجب أن تكون نقديّة. وأحد الحوافز الرّئيسة لعمل نيتشه، كما يقول «دولوز» هو أنّ «كانط» لم يقم بالنّقد الحقيقيّ؛ لأنَّه لم يعرف أن يطرح مشكلته باصطلاحات القِيَم، فيما فلسفة نيتشه، كما يذكر دولوز في كتابه (نيتشه والفلسفة)، تنطلق من الواقعة الآتية: «أنَّ فلسفة القِيَم كما يؤسّسها ويصوّرها هي الإنجاز الحقيقيّ

للنّقد. وهي الطّريقة الوحيدة لإنجاز النّقد الكلِّيّ؛ أي صنع الفلسفة (بضربات مطرقة)»[1].

لقد نحا «نيتشه» منحًى علمويًّا، على غرار فلاسفة عصره، فذهب إلى أنَّ الأخلاق في مجموعها ليست سوى لغة تُعبّر عن الأحوال النّفسيّة تعبيرًا رمزيًّا. والأحوال النّفسيّة ذاتها ليست سوى لغة رمزيّة تُعبّر عن الوظائف العضويّة في جسم الإنسان. الأخلاق، إذًا، تجد أساسها في الفيزيولولجيا؛ أي في وظائف الأعضاء، أي في الطّبيعة. ومن هنا كانت أخلاق العبيد هي أخلاق المسيحيّة ـ بحسبه ـ، وهي تاليًا متعارضة مع الطّبيعة وقوانينها. فأخلاق الشّفقة والرّحمة والعفو هي أخلاق تتنافى مع قوانين الطّبيعة وقوانين التّطوّر. فالتّطوّر يتحقّق بإرادة الحياة والقدرة على ممارستها والطّموح لتحقيق الأفضل والأصلح.

إذًا، الحياة في جوهرها صراعٌ. والصّراعُ من أجل البقاء يعني لدى نيتشه شيئًا آخر مختلفًا تمامًا عمَّا لدى الأرثوذكسيّين الدّاروينيّين. وطبقًا لتصوّراتهم، فإنّ ذلك يُمثّلُ تنافسًا بين الأفراد في داخل الجنس البشريّ عندما يجب على ذلك الجنس أن يتكيَّفَ مع التّغيّرات البيئيّة. فيما نيتشه يرفضُ طريقةَ الفهم هذه بازدراءٍ؛ فهو يعتقدُ أنّ القوةَ المُحرّكةَ تنبعُ من الداخل. فالبديل لأخلاق العبيد هو إرادة الحياة وتحقيق الإنسان الأرقى الذي يُجسّد المثل الأعلى الأخلاقيّ.

نعود إلى إشكاليتنا التي طرحناها في بداية هذا البحث، أنه كيف يمكن أن يكون «نيتشه» المفتاح لإشكاليتنا الأخلاقيّة المعاصرة؟

يبدو واضحًا أنَّ «نيتشه» لم يكتفِ بمجرّد الدّعوة إلى بناء الأخلاق وقِيَمها على العلم؛ بل عمل على تطبيقِ المنهج الجينيالوجيّ العلميّ في تحليل القِيَم الأخلاقيّة وتتبّع تطوّرها عمومًا، سالكًا في ذلك مسلك «أوغست كونت» (Auguste Comte). فبدا أنّ الطّريق إلى علمنة الأخلاق التي عبّدها قد مرَّت بثلاث مراحل؛ الأولى تحرير الأخلاق من الأُسس الدّينيّة التي تجعل الله هو مصدر الأوامر والنّواهي. تلتها التّجربة الأخلاقيّة مع الحداثة وتحديدًا مع «كانط»، إذ أصبح العقل هو مصدر الأخلاق، وحين نبحث في صورة جذريّة في العقل الكانطيّ نجد فيه الواجب: الواجب تُجاه الذّات، وتُجاه المجتمع، وتُجاه التاريخ، وتُجاه شيء متعالٍ. أمَّا في المرحلة الثّالثة، وتحديدًا مع «نيتشه»، لم يعد الإلزام أو الواجب تُجاه شيء متعالٍ؛

1- جيل دولوز، نيتشه والفلسفة، ص 7.

بل أصبح الواجب هو التّلبية الفوريّة للرّغبات، وتَجنُّب أكبر قدر من الألم. ولكنَّ المتعة، بالمنظور النّيتشويّ، ليس هدفها الاستجابة لفكرة ما أو إحداث تغيُّرٍ اجتماعيّ انطلاقًا من فكرة مثاليّة متعالية، وإنَّما انطلاقًا من الذّات، والذّات هنا ليست بالمعنى الدّيكارتيّ؛ أي إرادة إثباتها في «الأنا» أُفكّر، بل في «الأنا» النّرجسيّة.

لقد حلَّ الوعي النّرجسيّ مكان الوعي الفكريّ، بعبارة أخرى، لقد حلَّ «الأنا» النّرجسيّ مكان «الأنا» أُفكر. فديكارت كان يصرّح أنَّ مقياس الأنا هو التّفكير، أمَّا مقياس الأنا النّيتشويّة فهو التّلبية الفوريّة للرّغبات والبحث في تحقيق السّعادة الفرديّة وليس العامَّة. وهذا النّوع مِنَ الصّفات هو خروج على التّأسيس في الأخلاق بصورة جذريّة والانخراط في اللّذّة والنّرجسيّة، بوصفهما القيمتان النّهائيّتان للثّقافة المعاصرة وما تحتويه من قِيَم أخلاقيّة.

تعيش المجتمعات المعاصرة أزمة ثقافيّة وروحيّة بسبب اللّايَقين في طبيعة المبادئ الأخلاقيّة التي ينبني عليها الفعل الخلقيّ. وهذا يدعونا إلى الشّروع في دراسة تحليليّة للأخلاق. فإذا كانت الأخلاق تحمل بعض الكلمات مثل: الحَسَن والسّيِّئ، والخير والشّرّ، والعدالة والظّلم... فإنَّ الأخلاق المعاصرة، وفي نسقها التّحليليّ، تحاول أن تُسائل المضامين التي تحملها هذه المفردات.

يمكننا الادِّعاء أنَّنا نمرّ راهنًا بمرحلة ما بعد الأخلاق، إذ نكفّ عن الاستماع إلى أوامر القيمة، وبدأ البحث في الأُسس اللّسانيّة والمنطقيّة التي تشتقّ منها الأخلاق قِيَمها، وهذا ما فعله «نيتشه». فالقِيَم عنده إشكال وجود أعطى للقيمة سؤالًا مركزيًّا، وكذلك السّؤال المركزيّ عند الإنسان المعاصر هو سؤال قِيَم. فالمتتبّع للمسار الفلسفيّ عبر التّاريخ يجد أنَّه بدأ بمبحث الوجود، وأتبعه بمبحث المعرفة، ثمَّ مبحث القِيَم. وهذا ليس مسارًا موضوعيًّا، بل هو مسار زمنيّ أيضًا. فسؤال الفلسفة بدأ وجوديًّا، ثمَّ معرفيًّا وراهنًا قيميًّا. لقد أصبح للقيمة الصّادرة عن الإنسان الفرد، السّحر الكبير وربطها بمجالات الحياة.

مع «نيتشه» انتقلت الأخلاق من مرحلة «يجب عليَّ»، أو الإلزام الكانطيّ، إلى مرحلة «أنا أُريد». ولعلَّ السّمة الغالبة راهنًا هي تقديس الرّغبة الخاصّة، فإنسان اليوم غارق في ذاتيّته وفرديّته، ولم يعد يكترث للتّغيير العامّ، وتَحرَّر من الإطار الاجتماعيّ في فضاء الكون المفتوح على الفرضيّات التي تُعزّز فردانيّته، فبات يبتكر القِيَم التي تتناسب مع رغباته وطموحاته ومنفعته الشّخصيّة.

خاتمة

خلاصة القول، يمكننا الادِّعاء أنَّ الأخلاق الرّاهنة وقِيَمها تكاد تكون متطابقة مع تلك التي بَشَّر بها نيتشه قبل ثلاثة قرون. صحيح أنَّ سادة هذا العصر ليسوا على الصّورة النّيشتويّة لناحية الشّكل والمُحيَّا، وإنَّما سادة يعملون على تنفيذ نسق تربويّ واجتماعيّ واقتصاديّ يطال الفرد والأسرة، وذلك بامتلاكهم مفاتيح القرية الكونيّة الافتراضيّة التي ألغت الحدود الجغرافيّة والزّمانيّة، وسَهّلوا التّواصل بين أنماط المجتمعات المختلفة، وعزّزوا التّواصل في عالم افتراضيّ احتشدت فيه قِيَم أخلاقيّة، بعضها «ارتكاسيّ» أَعادَ إنتاج أخلاق ميتافيزيقيّة، فيما بعضها الآخر «راهنيّ» أنتجته ثورة الاتّصالات، وكلاهما يعبثان بالضّمير الفرديّ والجماعيّ على حدٍّ سواء؛ ليجد الإنسان البسيط أو الضّعيف، بالمنظور النّيتشويّ، نفسه وسط عالمَين: الأوّل افتراضيّ يُسقِط فيه رغباته وقِيَمه الفرديّة فيبثّها عبر الأثير من دون ضوابط طالما أنَّها تتوافق وأيديولوجيّة مالِكي هذا الأثير الكونيّ وقِيَمَهم، فيما العالم الثّاني واقعيّ يقذف الإنسان وسط القِيَم الأخلاقيّة المتوارثة، فيجاري القطيع ويمتثل ظاهريًّا لقوانينه، ليبدو الإنسان المعاصر في حالة فصاميّة بين ذاتويّته النّرجسيّة ورغباته وإسقاطاتها الافتراضيّة، والواقع الذي تتأرجح كفّة ميزانه القيميّة بين الفرديّة الخالصة وأخلاق القطيع المتوارثة.

لقد تحوّلت الحداثة إلى تضخّم مفرط للنّزعة المادِّيّة والاستهلاكيّة، فتشيَّأ الإنسان وجرى تسليعه بحكم سيادة منطق الرّأسماليّة المتوحّشة التي حوّلت البشر إلى مجرَّد آلات مُسخَّرة لتحقيق فائض الإنتاج اللّازم لاستمرار المنظومة الاقتصاديّة التي تُسيطر عليها فئة قليلة من البشر تفرض قِيَمها الأخلاقيّة، فهي تملك سلطة الكلمة والمعنى، وتاليًا أنساقها القيميّة التي عزّزت الفردانيّة والرّغباتنيّة، وتاليًا حلّت «أنا أُريد» وقيمها الأخلاقيّة المادِّيّة بدل «أنا أُفكّر» وإدراكاتها المعقولة البَعديّة.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربيّة

- دولوز، جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة أسامة الحاج، ط1، لا دار نشر، 1993م.
- كانط، عمانوئيل، أُسس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمة محمّد فتحي الشّنيطيّ، ط2، بيروت، دار النهضة العربيّة، 1970م.
- نيتشه، فريدريك، إرادة القوّة: محاولة لقلب كلّ القِيَم، ترجمة محمّد الناجي، لا ط، المغرب، دار أفريقيا الشّرق، 2011م.
- نيتشه، فريدريك، إنسانيّ مفرط في إنسانيّته، ترجمة علي مصباح، ط1، بيروت، منشورات الجمل، 2014م.
- نيتشه، فريدريك، جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة محمّد النّاجي، ط2، المغرب، دار أفريقيا الشّرق، 2012م.
- نيتشه، فريدريك، ما وراء الخير والشّرّ، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، ط1، بيروت، غروب في، 1995م.

المراجع الإلكترونيّة

- ديونيسوس أو باكوس أو باخوس في الميثيولوجيا الإغريقيّة، www.wikipedia.0rg/wiki